ملحمة الحرافيش

٤

نجيب محفوظ

■ ملخص مانشر

ونب جلال بن زهيرة من عبد ربه الفران إلى الفتونة .. انتزعها عنوة من سكة الصلاح بعد أن هزمه وقهر أتباعه .. وفوق هذا انتزع لنفسه كل عروش الفتوات فى الأحياء المجاورة .. وأصبح هو الأمبراطور وحده .. لم تكن الفتونة فى خاطره ولا طمح إليها من قبل وهو يتاجر بمال أمه ويضيف المزيد من الثراء . ولكنها جاءت قرارا مفاجئا .. ربما إغراقا للضياع الذى أحاط بوجوده بعد أن واجه عبث الحياة بعد موت « قمر » خطيبته التى اختطفها الموت منه وهو فى نشوة الحلم .. وكان منظر أمه الجميلة برأسها المهشم لا يبرح خاطره ساعة أن انقض عليها المعلم محمد أنور بعصاه ليحطم فيها الكبرياء الذى عذبه . والرفض الذى صنع مأساته !

وسرعان ما خابت أحلام الحرافيش بعد أن انتعشت توقا للعدل .. وأملا فى عهد يعيد أمجاد عاشور العظيم وشمس الدين الأمجد .. عكف الفتوة الجديد على الاقتناء والاكتناز مثل أى فتوة من الذين سبقوه .. ومع ذلك كان يفتقد السعادة .. لم يتزوج . ولم يخفق قلبه بحب .. كل مشاعره تبلدت بالاحتقار والكراهية لكل شىء .. ولكن زينات الشقراء امرأة الليل وعشيقة الوجهاء تقتحم حياته .. ثم تصبح عشيقته .. أيقظت فى أعماقه رغبات الرجولة المتوارية .. وأجنته من جانبها بجماع مشاعرها .. واستغرقها الحلم فى أن تصبح حليلته بشرع الله .. وعندما نافسته بأن يحقق حلم الحرافيش فى العدل . كشف لها عن طواياه .. انه رجل يحتقر كل الناس ! ولا يهمه جوعهم .. الذى وصفته بأنه أنقطع من الموت !

وجعلته وصفات المعلم عبد الخالق العطار يزداد قوة وجمالا ورجولة .. وبدأ حلم الخلود يراوده إنبثاقا من مشاعر غريبة كانت تطوف به حول الموت والحياة والوجود . وحدثه المعلم عبد الخالق العطار عن الشيخ شاور ومزاخاة الجان . حيث الخلود واللعنة . والتعام الإنسان بالشيطان واكتساب جنسية الغربة الأبدية .. وذهب إليه .. لم يرشادر فى غبار الظلام المحيط به ولكن تناهى إليه صوته .. وأنصت إليه برغبته تأمل عليه الشيخ كل شروطه .. وقبل .. أوقف كبرى عباراته على حواء الحبشية جارية شاور .. وشرع يبنى سنذنة من عشرة طوابق مكان إحدى الحرابات . وعكف ليعيش فى عزلة تاما كاملا .. لا يرى أحدا ولا يراه غير خادمة .. وتجنب البوظة والجوزة وزينات الشقراء . فى انتظار تحقيق الحلم فى اليوم الأخير من العام . ليتم الالتحام الأبدى بينه وبين الجنى .. حيث الخلود .. وابتعاد الموت أبدا !

٥٥

تلقت زينات الشقراء قراره كأنه ضربة قاتلة . تطيعة أليمة غير مسبوقة بتمهيد . وبلا سبب مقنع . إنها المرارة والخوف واليأس . ألم يكونا كالزبدة والعسل حلاوة وامتزاجا ؟ . وآمنت بأنها ملكته إلى الأبد . ها هو يغلق الباب مثل دراويش التكية هاجرا أحبابه فى الحيرة والعذاب . بكت طويلا والخدم يصدونها عن الجناح . زارت أخاه المعلم راضى لوجدته فى حيرة مماثلة . جالست أباه عبد ربه فى جناحه . لقد نفير العجوز فلم يعد يزور البوظة إلا نيابة ندر . استقام وخشع . وهو مثلها فى حيرة من أمر ابنه .

قال

- لا أستطيع رؤيته رغم أننا فى دار واحدة . . عانت زينات حياة معذبة . لم يكن المال ينقصها ولكنها فقدت تاج الحياة . تزعزعت ثقتها بنفسها وتجهمها للمستقبل الغامض .

٥٦

وجزعت العصابة واضطربت . لم يلأ مؤنس العال عين أحد ولكنهم التزموا بطاعته . وتساءلوا أى نذر نذره ، لم يعهد بالفتونة لآخر ، وتجارته وأملاكه لأخيه راضى وتسرب النبأ الخطير الى الحوارى المتنافسة ، وبمرور الزمن أعلن الفتوات التحدى من جديد . وتلقى مؤنس العال أولى هزائمه على يد فتوة العطوف ، ثم تتابعت الهزائم أمام كفر الزغارى والحسنية وغيرها ، حتى اضطر مؤنس العال لشراء أمن الحارة وسلامتها بالإتاوات . وأراد رجاله إبلاغه بما آل الحال إليه ولكن حيل بينهم وبين ذلك . وكأنه الموت قد انتزع فتونهم منهم ودفنه فى جناح محكم الإغلاق .

٥٧

وتابع الناس بذهول بناء السنذنة الغريبة . تواصل ارتفاعها إلى عالا نهاية . من أصل ثابت فى الأرض ، بلا جامع أو زاوية ، لا يعرف لها هدف أو وظيفة ، حتى الذى يقوم بتشييدها لا يعرف شيئا عنها . وتساءل قوم

- هل مسه جنون ؟

أما الحرافيش فقد قالوا إنها اللعنة حلت به جزاء خيانته لعهد جده العظيم ، وتجاهله لرجاله الحقيقيين ، وجشعه الذى لا يقنع بشىء .

٥٨

ومرت الأيام وهو مستغرق فى عزلته ، يقتلع كل يوم من قلبه جذور العالم الخارجى ، الفتونة والمال والمرأة الجبهة الجميلة استسلم للصمت والوعى والصبر . يسلبه الأمل والفوز الذى لم يطمح إليه إنسان من قبل . عاشر الزمن وجها لوجه بلا شريك بلا ملهاة ولا مخدر . واجهه فى جموده وتوقفه وثقله .

إنه شىء عنيد ثابت كثيف وهو الذى يتحرك فى ثنايا كيا يتحسرك النائم فى كابوس . إنه جدار غليظ مرهق منجهم . غير محتمل إذا انفرد بمنعزل عن الناس والعمل كأننا لا نعمل ولا نصادق ولا نحب ولا نلهو إلا فرارا من الزمن . الشكوى من قصره ومروره أرحم من الشكوى من توقفه . عندما يدركه الخلود سيجرب آلاف الأعمال . بلا خوف وبلا كسل . سيخوض المعارك بلا تدبر . سيسخر من الحكمة كما يسخر من الحماقة . سينقلك ذات يوم عبادة الأسرة البشرية . أما اليوم وهو يزحف فوق الثوانى نهر يبسط راحته سائلا الرحمة . ويتساءل متى يجىء الجان . وكيف يؤاخيه . هل يراه رؤية العين . هل يسمع صوته أم أنه يلتحم به مثل الهواء الذى يتنفسه . إنه مرهق ضجر ولكنه لن يلين للخسور . لن يخسر المعركة . ليناً لم وليبك اذا شاء . إنه يعرف الموت . سيظل الكون خاضعا لتقلبات الفصول الأربعة أما هو فربيع دائم . سيكون طليعة كون جديد ، أول مستكشف للحياة بلا موت أول رافض للراحة الأبدية . الفوز الظاهرة الخفية . إنما يخشى الحياة الضعفاء . أما معاشرة الزمن وجها لوجه فعذاب لا يعرفه الخيال .

٥٩

وقف جلال عاريا أمام نافذة مفتوحة فى آخر يوم من العام المكتوب . استقبل شعاع شمس مغسولا برطوبة الشتاء ، وتلقى نفحات باردة من ربيع

متأبية . آن للمنتصر أن يجني ثمرة تصبره . آن لليل القسى والإرهاق والوحدة أن ينتهي . لم يعد جلال عبد ربه الانسان الفاني . إنه مُلئ بروح جديدة تملأ أعطافه ، تسكره بالإلهام ، تنفخه القوة والثقة . بوسعه أن يحدث نفسه فيحدث الآخر في أن سوان يثق كل الثقة بما يهمس في صميمه ، انتصر على الزمن بعد صموده أمامه وجها لوجه بلا رفيق . لا خوف منه بعد اليوم . فليهدد غيره بجريانه المنحوس . لن يبتلي بالتجاعيد ولا بالشيب ولا بالوهن . لن تخونه الروح لن يحمله نعش ، لن يضمه قبر . لن يتحلل هذا الجسد الصلب ، لن يتحول إلى تراب . لن يذوق حسرة الوداع . تجول عاريا في الحجرة وهو يقول بطمأنينة .

- مباركة هذه الحياة الأبدية . .

٦٠

فتح الباب بعصبية واقتحمت الحجرة زينات الشقراء . طارت نحوه مجنونة بالأشواق فذابا في عناق حار طويل . أنتحبت باكية . سألته بعتاب حار .

- ماذا فعلت ؟

قبل خديها وشفتيها فعادت تتساءل

- كيف هنت عليك ؟

اجتاحه الحنين إليها شيء ثمين جميل عابر . يراها شابة جميلة وعجوزا ذميمة . كذبة عذبة . كأن الإخلاص أصبح مستحيلا . قال لها

- لننس ما فات . .

- ولكني أريد أن أعرف . .

- كأنه مرض وانتهى . .

- يالك من خائن . .

- يالك من امرأة مليحة . .

- أتدري ماذا حصل للدنيا في غيابك ؟

- فلنؤجل الحديث عن ذلك . .

فتراجع رأسها وقالت بانهيار

- ما أجمل منظرك . . .

فانقبض قلبه ونعم وهو يرمقها برثاء

- أسف على ما عانيت . .

فقالت بعناد .

- سأسترد صحتي في ساعات . . ، ولكن ماسرك ؟

فقال بعد تردد

- كنت مريضا وشفيت . .

- كان ينبغي أن ألزم جانبك . .

- كان العلاج هو الوحدة !

وضمته إلى صدرها وهي تقول بشغف

- دعني أرى إن كان الحب مازال هو الحب . . .

أما الآسي وأحزاني فسأحدثك عنها فيما بعد . .

٦١

جلس في بهو الفندق فاستقبل المعلم عبد ربه والمعلم راضي في عناق صادق . وسرعان ما جلد مؤنس العال ورجال العصابة قبلوه باحترام وقال له مؤنس مجزونا

- ضاع كل شيء ، لم يكن باليد حيلة . .

وفي موكب من رجاله خرج إلى الحارة . ومضى الى المقهى اجتمعت الحارة كلها في الطريق تحييه فاختلط الحب بالكره ، المعجب بالحاسد . ومال نحو مؤنس العال فسأله

- ألم يظن أحد بي الجنون ؟

فهتف الرجل

- أعوذ بالله يا معلم . .

فقال له وهو يرمق الجمهور بازدراء

- فليذهبوا إلى أعمالهم مشكورين . . ثم غمغم

- ما أكثر الكره وما أقل الحب !

٦٢

وزار المنذنة ويصحبته عبد ربه وراضي . رسخت قاعدتها وسط خرابة ، وأزيل الحصى والقاذورات مما حولها . قاعدة مربعة في مساحة بهو ذات باب خشبي مقوس مصقول . ويواصل جسمها المتين ارتفاعه ، لا ترى له قمة ، لا يعلوه بناء ، ويعلو أضعافا فوق كل شيء ، توحي أضلاعه بالقوة ، ولونه الأحمر بالغرابة والرعب .

وتساءل عبد ربه

- لو سلمنا بأنها منذنة فأين الجامع ؟

فلم يجب ، فقال راضي

- كلفتنا مبلغا طويلا . .

وعاد الأب يسأل

- ما معنى هذا يابني ؟

فضحك جلال وقال

- الله أعلم . .

- منذ تم بناؤه ولا حديث للناس سواه . .

فقال جلال بازدراء

- لا تهتم بالناس ، إنه من القدر يا أبي ، وقد يرتكب الإنسان حماقات كثيرة ليبلغ في النهاية حكمة فريدة . .

وهم الأب بمعاودة السؤال ولكنه سبقه بنبرة قاطعة

- أنظر ، ها هي المنذنة ، سيفنى كل شيء في الحارة وتبقى هي ، أطرح عليها أسئلتك وسوف تجيبك إذا شاءت .

٦٣

وانفرد بالمعلم عبد الخالق العطار وسأله بجدية مخيفة

- ماذا ظننت باعتزالي ؟

فقال الرجل بصدق وقلبه يخفق بالخوف

ردت قولك بلا زيادة

- وماذا ظننت بالمنذنة ؟

فقال الرجل بعد تردد

- لعلها من النذر يا معلم . .

فسأله متجهما

- ألست رجلا حكيما يا عبد الخالق ؟

فبادر الرجل يقول

- إن تفشت همسة واحدة فاعتبرني المذنب !

٦٤

في جوف الليل تسلل إلى المنذنة . رق في سلمها درجة حتى انتهى إلى شرفتها العليا . تحدى جو الشتاء القارص في تسلطه الشامل على الوجود . تطاول رأسه إلى مهرجان النجوم السافرة المنتشرة فوق كمظلة . آلاف الأعين تومض فوق ، وكل شيء تحته غارق في الظلام ، لعله لم يصعد ولكن ثائته طالت كما ينبغي لها . عليه أن يرتفع ، أن يرتفع دائما ، فلا سبيل إلى النقاء إلا بالارتفاع . وفوق القمة تسمع لغة الكواكب . وهمسات الفضاء ، وأماني القوة والخلود بعيدا عن أنات الشكوى والخور وروائح العفن ، الآن تنشد ألحان التكبة بأغنيات الخلود ، وتعرض الحقيقة العشراء من وجوهها الخفية ، وينكشف الغيب عن شتى العصائر . من هذه الشرفة يستطيع أن يتابع الأجيال في تعاقبها ، وأن يلعب لكل جيل دورا . وأن ينضم بصفة نهائية إلى أسرة الأجرام السماوية .

٦٥

وقاد رجاله ليؤدب أعداءه وليعيد إلى حارته مكانتها السابقة . في فترة قصيرة أحرز انتصارات باهرة على العطوف والحسينية وبولاق وكفر الزعفراني والدراسة . كان يرمي بنفسه على خصومه فيتطايرون أمامه تسحقهم الهزيمة والذل . عرف بأنه القوة التي لا تقاوم والتي لا تجدي معها قوة أو شجاعة . .

٦٦

تغير أسلوبه في الحياة . أصبح يأكل فيفرط في الأكل ، ويشرب فيفرط في الشرب ، ويدخن فيفرط في التدخين . وكلما غازلته غانيته استجاب لها مستعينا بالسرية والستر وسرعان ما تحور من سطوة زينات فلم تعد إلا وردة جميلة في حديقة ملأى بالورود . وترامت أنباء مغامراته إلى المرأة فاشتعل بجرائحها جنون الغيرة والخسران ، ورأت وجهها مرآة المستقبل متلاشيا في ظلمة النسيان والضياع . طالما وجدت فيه الطفل البريء ذا المراهب الخارقة . وفتحت لها براءته أبواب الأمل البعيد ، فضمنت الحب وطمحت إلى الزواج . ولعل السلو عن الحياة نفسها أهون من السلو عنه وقد تجسدت فيه القوة والجمال والشباب والعظمة غير المحدودة . ولكنه خرج من عزلته مخلوقا آخر . مخلوق يبهر بالقوة والجمال والشباب ويرعب بالتقلب والجنون والحنكة والاستهانة . وشعر بأنها تذق وتنحل وتتضاءل بل وتتلاشى أمام سيادته المرعبة المجهولة . ولم تجد ما تتذرع به حيال الا الضعف والابتهال والهزيمة ، ولكنه اعترضها بنصوبة متكبرة ، مفترة بشموخها ، متعطفة بحنان بارد ، متحصنة بتعال لا متناه ، وقال لها اقنعي بمنزلة تحسدين عليها . .

ورأت أنها تذبل بقدر ما يزدهر ، وأنهما ينطلقان في طريقين متضادين ، فاحتفن قلبها بالحب والتعاسة . .

٦٧

ورزق عبد ربه الاب بذكر سماه خالد . وسرعان ما تاب وأقلع عن البوظة بصفة نهائية ، ورجد سروره في الصلاة والعبادة ، فاتخذ من الشيخ خليل الدهشان نجيا وصديقا . . ؟

وداخله قلق مرعب من ناحية جلال وقلق أشد من ناحية المنذنة المخيفة . خيل إليه أن علاقة الأبوة تهتك ، إنه مشلها قوي وجميل وعتيم وغامض . وقال له

- لن يطمئن قلبي حتى تتزوج وتنجب . .

فقال جلال

- في الوقت متسع يا أبي . .

فقال بتوسل

- زهق تبعث عهد الناجي العظيم..

فابتسم ولم يجب، فقال الأب.

- وحتى تتوب عن المنكر وتتبع سبيل الله..

وتذكر ماضي أبيه القريب والبعيد ففهقه بصوت كالطبل

٦٨

مرت الأيام لا يخشى من مرورها. وتتابعت الفصول بلا جزع. وارتفعت الإرادة الصلبة فوق قوى الطبيعة المتصارعة ولم يعد الغيب يضمر ما يخيف.

وفي هاوية اليأس والحزن تلقت زينات الشقراء دعوة للحب. طالما انتظرتها، طالما تلهفت عليها. طالما تهيأ لها قلبها المكلوم.

ها هو يجود بليلة من لياليه، وها هي تمضي إلى داره ينطق ظاهرها بالرضا والقناعة. وفتحت النوافذ وانجابت الستائر لتوسع لنسائم يناير. لفتية بالبشر والمرح وكتمت في الأعماق أحزانها. تعلمت أن تعامله بحذر الخائف فراحت تعد الشراب وتقدم الأقداح، وتهمس في أذنه.

- أشرب يا حبيبي..

فيقول لها وهو يعب من الخمر عبا

- ما ألطفك..

وقالت لنفسها إنه فقد قلبه كما فقد براءته، وأنه يتباهى وهو لا يدري بقسوته مثل الشتاء، وقالت لنفسها أيضا إنها تتحر بوعي وإرادة..

ورمقها وهو يتوغل في السكر، وتمتم

- إن صح نظري فلست كالعهد بك..

فقالت بعذوبة

- إنه وقار الحب..

فضحك قائلا.

- لا وقار لشيء..

وعابث خصلة من شعرها الذهبي وقال

- مازلت في أعز مكانة ولكنك امرأة طموحة..

فاندفعت قائلة

- ما أنا إلا امرأة حزينة..

- تذكري نصائحك الغالية عن قصر الحياة..

- كان ذلك في زمان الحب...

- هأنا أعمل بها تشكرا لك..

وقالت لنفسها أنه لا يدري ما يعنيه كلامه، وأنها تعلم الغيب أكثر منه بقليل، وأن الشر يرفع الإنسان على رغمه إلى مرتبة اللائكة. ورنت إليه طويلا بشغف وهي تقاوم رغبة في البكاء. أو استنامت إلى نسائم يناير وقالت لنفسها أنه شهر غدار، سرعان ما تدهمه الخماسين فيتقلب شيطانا مغبرا ينفث بالربيع. واحتواها بين ذراعيه فضمته الى صدرها بقوة جنونية..

٦٩

تخلص من ذراعيها ومضى ينزع عنه ملابسه حتى بدا كتمثال من نور. وتهض قائما. راح يتمشى في المخدع، وسرعان ما ترنح حتى ضحك. قالت

- شربت بحرا..

- مازلت ظمآن..

فغمغمت كأنما تخاطب نفسها

- ذهب زمان الحب..

وترنح منطوحا حتى تهاوى فوق ديوان. وضحك عاليا.

- قالت: إنه السكر..

فقال متجهما

- كلا، شيء أثقل، كأنه النوم..

حاول القيام ولكنه استسلم متمتما.

- إنه النوم يجيء بلا دعوة..

عضت على شفتها. هكذا سينتهي العالم ذات يوم. وأتعس الناس من ينشد النصر في الهزيمة. وقالت له بصوت مبحوح

- حاول أن تنهض

فقال بتراخ وقور

- لا داعي لهذا..

- ألا تستطيع يا حبيبي؟

- بلى، إنها نار الجحيم والنوم..

فانتفضت تائهة. تراجعت إلى مركز المخدع وهي تنظر إليه بوحشية حلت محل العذوبة الحزينة، أصبحت قطعة من التحفز المشرب بالمرارة والحزن. نظر نحوها بعينين غائمتين، حول بصره إلى لا شيء، وقال بنفس ثقيل.

- ما بال النوم يزحف!

فقالت بنبرة اعتراف مقدمة

- ليس النوم يا حبيبي..

- لعله الثور الذي يحمل الدنيا على قرنه؟

- ولا هو الثور يا حبيبي..

- إنك مضحكة يا زينات، لماذا؟

- بل إني أنتحر..

- هه؟

- إنه الموت يا حبيبي!

- الموت؟..

- لقد جرعت من السم ما يكفي لقتل فيل..

- أنت؟

- أنت يا حبيبي..

وضحك ولكنه سرعان ما كف عن الضحك في أعياء فقالت وهي تبكي.

- قتلتك لأقتل حياة العذاب!

حاول الضحك مرة أخرى وتمتم

- جلال لا يموت..

- الموت يطل من عينيك الجميلتين..

- الموت مات يا جاهلة..

واستجمع كل قوته حتى وقف ممتدا في فضاء الحجرة. تراجعت إلى الوراء في رعب، ثم اندفعت هاربة مجنونة.

٧٠

كأنه بجمل المنذنة الرعبة فوق كاهله. الموت ينطحه كما ينطح أي حيوان أعمى صخرة صلدة.

وهتف بلا خوف

- ما أشد الألم..

سار مترنحا نحو الخارج وهو عار تماما. تمتم وهو يغادر الدار إلى ظلام الحارة

- جلال يتألم ولكنه لا يموت..

تقدم ببطء شديد بخوض الظلمة الحالكة مغمغما بصوت غير مسموع

- النار.. أريد ماء..

وجعل يتحرك في الظلام ببطء شديد، يغمغم منتكسا وهو يعتقد إنه يملأ الدنيا صياحا. وتساءل أين الناس؟.. أين الاتباع!.. أين الماء؟.. أين زينات المجرمة؟..

وقال إنه الكابوس في ثقله وسماجته ولكنه ليس الموت. القوى المجهولة تعمل الآن بكل طاقتها لترده الى الحياة والسخرية.. ولكن ما أشد الألم.. ما أفظع الظمأ..

وعثر في تخبطه على جسم بارد. آه إنه حوض الدواب. اجتاحته فرحة النجاة. انحنى فوق حافة الحوض. ترك رأسه تتهاوى إلى أسفل. مد ذراعيه فغرقتا في الماء. لامست شفتاه الماء المشبع بالعلف. شرب بنهم شرب مجنون. صرخ صرخة مدوية ممزقة بوحشية الألم. غاص نصفه الأعلى في الماء العكر، تفوض نصفه الأسفل فوق أرض مغطاة بالروث. كفته الظلمة الحالكة في تلك الليلة المثيرة المفزعة من ليالي الربيع..

ريشة: محمد ابراهيم

مع الحكاية الثامنة في العدد القادم إن شاء الله